# بكاء الذات في الشعر الجاهلي

د. محمد السنوسي عمر التواتي ، أ. نجوى فضل الله محمد عبدالسلام
جامعة عمر المختار – كلية الآداب والعلوم – القبة

**الملخص :**

تتخذ هذه الدراسة من شعر بكاء الذات في الشعر الجاهلي مجالا لها، تحدد البواعث والمثيرات التي تحمل الشاعر على رثاء نفسه، وعن غايات الشعراء من رثاء ذواتهم ، وتكشف عن أهمية عقائد الجاهليين في مسألة الحياة والموت، وتسجل جانباً من جوانب حياة العرب الحربية فيما يتصل بأيامهم ووقائعهم وحياتهم الاجتماعية المتعلقة بطقوس نعي الميت ودفنه والثأر له إن كان مقتولا بيد الأعداء.

اعتمدت الدراسة على المصادر التراثية القديمة في استقصاء هذه الأشعار الرثائية، في محاولة جادة لرصد تلكم الأشعار كلها، غير أن هذه المحاولة كانت تصطدم بعقبات كثيرة من أبرزها افتقار النصوص إلى السياق التاريخي الذي يحدد زمن نظم الشاعر للنص، وتضارب القرائن أحيانا في المصادر المختلفة، لكن مع ذلك كله يمكننا القول إن النصوص التي توافرت للدراسة تصلح لاستجلاء حقيقة عقيدة القوم فيما يتصل بالحياة والموت، وكافية لإضاءة ظلمات نفسية الجاهلي القلقة المضطربة.

وتحاول الدراسة سبر أغوار النفس الإنسانية عامة والجاهلية خاصة حال إقبالها على الموت معتمدة على المنهج التكاملي الذي يفيد من مجموع المناهج، فتناولت أساليبهم وصورهم وأخيلتهم وما تنطوي عليه من قيم جمالية ودلالات نفسية، فكشفت عن تشبث عظيم بالحياة وخوف من الموت وقلق على المصير، وكشفت عن ترحيب بالموت وتفضيله على الحياة حال تعكرها وعقوقها.

**مقدمة :**

الحمد لله الذي جعل للإنسان من كلامه غذاءً لروحه، ومن نظمه متنفّسا لآهاته، ومن بيانه جمالا تصبو إليه نفسه، ومن صوته إيقاعا يطرب له سماعه، والصّلاة والسّلام على سيّد الفصحاء وإمام البلغاء، سيّدناً محمّد وعلى آله وأصحابه ومن اقتفى أثره واستن بسنته إلى يوم الدين، أمّا بعد،

فلا تزال موضوعات الشعر الجاهلي تغري بالبحث، رغم كثرة الدّراسات التي أتت عليها كلّها أو كادت، وليست أغراضه بمنأى عن اهتمامات الباحثين إلى يوم الناس

هذا، وقد يكون الغرض الرّثاء ميزة خاصّة؛ للعاطفة الصادقة التي يفرضها مقامه، وتتبدّي هذه الميزة واضحة جليّة في رثاء النفس، من هنا جاءت هذه الدراسة موسومة بِـ "بكاء الذات في الشعر الجاهليّ".

وأهمية هذه الدراسة أنها تبين حال الجاهليين في مواجهة الموت، وذلك عبر استكناه النص والغوص في أعماقه، وتوضح جانبا مهما من عادات العرب الجاهلين فيما يتصل بمراسم تجهيز الميت وطقوس دفنه، وهي بذلك توثق لجزء من حياة الجاهلين الاجتماعية. وهي كذلك توثق لجانب من حياة العرب الحربية والسياسية فيما يتصل بأيامهم ووقائعهم؛ لأن بعض من رثوا أنفسهم كانوا قبيل موتهم قد أصيبوا أو أسروا في معركة أو حرب ؛ فكشفوا عن أسبابها وملابساتها ونتائجها؛ لذلك يمكن القول إن تلكم القصائد تمثل وثائق دينية وسياسية واجتماعية.

هذا فضلا عن العاطفة الإنسانية الصادقة التي تتدفق في صورها اندفاقا لا تحجزه سدود الزمان ولا تمنعه جدران المكان؛ لذلك امتازت تلكم القصائد بالصدق الفني والواقعي، ومن سماتها كذلك العفوية المطلقة فهي تأتي في سياقات استثنائية يفرضها مقام الموت المحدق بصاحبها .

أخذ البحث على عاتقه مهمة استقصاء دواوين الشعراء الجاهليين والمجاميع الشعرية وكتب الأدب والنقد والتاريخ ، وتحليل مرثياتهم على نحو أعمق؛ لتبين لكم التفسيرات المقبلة على الموت، في تأرجحها بين التشبث بالحياة استجابة لغريزة حب البقاء، وبين الاستسلام لحقيقة الموت وحتميته، وقد تمكنا بعون من الله - من إحصاء ثلاثة وأربعين شاعراً جاهلياً رثوا أنفسهم، ولطبيعة الدراسة التاريخية والدينية والاجتماعية والتحليلية والنفسية فقد رأينا في المنهج التكاملي الذي يأخذ من كل منهج بطرف المنهج الأفضل لها.

وجاءت هذه الدراسة في مبحثين وخاتمة؛ أما المبحث الأول : بواعث شعر بكاء الذات؛ "بواعث الدراسة" وتتدرج تصاعديا بحسب درجة القرب من الموت، أما المبحث الثاني : "أهميته".

وليعد النص الشعري نصاً في بكاء الذات توفر فيه - على الأقل- أحد الشروط الآتية:

أولا ــ إذا اشتمل النص ذاته على ما يؤكد ذلك.

ثانيا ــ إذا اتفقت الروايات التاريخية في المصادر القديمة على أن النص في بكاء الذات.

ثالثا ــ إذا توفرت القرائن لذلك، من مثل طول العمر مع بكاء الشباب مع سياق عام يدل

على دنو الأجل، وذلك بالاعتماد على الروايات المختلفة في المصادر القديمة ومحاولة الموازنة بينها والتوفيق بين شتيتها، ولعل هذا ما دعانا إلى أن نستثني كثيرا من النصوص التي ثبتت للمعمرين، من مثل النصوص الكثيرة التي اشتمل عليها كتاب " المعمريون والوصايا" لأبي حاتم السجستاني.

وقد أفاد البحث الباحثين من عدد من المصادر والمراجع القديمة والحديثة، أما القديمة فكان من أبرزها:

المفضليات للمفضل الضبي، وأيام العرب قبل الإسلام لأبي عبيدة معمر بن المثنى، وجمهرة أشعار العرب لأبي زيد القرشي، وغيرها. وأما الحديثة فكان من أهمها : الشعر الجاهلي دراسة في تأويلاته النفسية والفنية لسعيد العنبكي، والشعر الجاهلي منهج في دراسته وتقويمه لمحمد النويهي، والتفسير النفسي للأدب لعز الدين إسماعيل، وغيرها.

ولم يكن خالياً العمل من الصعوبات، وفي مقدمتها نقص كبير في الدراسات النفسية للشعر عامة والجاهلي خاصة، ثم اتساع رقعة تراثنا القديم، فالمؤلفات والموسوعات والمجاميع الشعرية كثيرة متعددة، لا يحدها حد ولا يحصرها حصر؛ فتقصر الهمة عن تتبعها كلها واستقرائها استقراء كاملا شاملا.

ولما كانت أعمال البشر مما يعتريه النقص عن التمام، ويعتوره التقصير عن الكمال؛ فإن هذا العمل عرضة للنقص والخطأ، فما كان من صواب فبتسديد من الله وما كان من خطأ فمنا، والله ولي التوفيق.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين

## أولا ـ بواعث الدراسة :

إحساس الإنسان بالموت يترافق مع قلق على المصير، والعلاقة بين الأمرين علاقة طردية, كلما ازداد إحساس الإنسان بالموت، تصاعد قلقه، "والقلق ليس هو الخوف؛ لأن الخوف هو دائما من شيء معين، أما القلق فيتعلق بالأشياء كلها في مجموعها، إن ما نقلق عليه هو العدم الماثل في الأشياء والأحياء، إذ نشعر في القلق بأننا نحن وكل الأشياء والأحياء قد انزلقنا في هاوية غامضة غير محددة[1]، إنها هاوية الموت والفناء. أبصر الجاهلي من حوله الموت يختر كل الأحياء، والبلى يأتي على كل الأشياء، فظل في قلق دائم على مصيره ومآله.

ولم يكن الجاهلي بدعا في هذا، إنما تشترك الإنسانية جميعا في هذا القلق على تفاوت بينها بحسب معتقداتها وبيئاتها وغير ذلك، وظل هذا القلق شرا يطارد البشرية، وظهر أول ما ظهر للأقدمين من خلال حتمية الألم والمرض والقتل والموت، وسوف

يظل هذا الشر عقبة كأداء أمام كل تفكير تفاؤلي تلفيقي، يأبى الاعتراف بشيء من الخلل، من اللامعقولية، من الانشقاق والتصدع في كتلة الكينونة[2]

إن استقراء النصوص الشعرية التي تضمنت رثاء القس بين عن طائفة من البواعث التي أثارت أشجان الشعراء، واستنهضت قرائحهم، فجاءت بقصائد ومقطوعات رثائية تتحمل بأصدق المشاعر الإنسانية وأنبلها ، فالشعور بالموت لا يمكن أن يكون شعورا واعيا كالشعور بالحياة، بل هو شعور غاية في الخفاء، يظهر أحيانا في ظروف خاصة[3] وهذه الظروف هي التي تبعث الشعراء على رثاء أنفسهم، تلكم البواعث لا تغادر في إطارها العام دائرة إحساس الشاعر بدنو أجله، وشعوره بقرب حينه، وقد بدا للباحثين أن يرتابها في العنوانات الآتية:

**التأسف على الشباب :**

يبدأ الإنسان حياته في هذه الدنيا ضعيفا، وتنتهي كذلك بالضعف، ويعيش بين البداية والنهاية حياة الفتوة والقوة؛ فترة الشباب، وهي أكثر مراحل حياة الإنسان إنتاجا، ويبلغ الإنسان ذروة إدراكه أهمية هذه المرحلة العمرية حال وصوله المرحلة الثانية مرحلة الشيخوخة؛ فيظل في توق دائم وشوق متجدد إلى تلك المرحلة التي أفل نجمها، وكلما أحس بالعجز والضعف ثار به الحنين إلى العهد المنصرم، حيث القدرة والقوة، ويزداد الأمر جلاءً في المجتمعات التي تقدر القوة وتعظمها، مثل المجتمع الجاهلي الذي كان من أخص خصائصه؛ القوة والسطوة؛ لاتصاله بأسباب الحرب والغزو والغارة.

استطاع مجموعة من الشعراء الجاهليين أن يسطروا اسما و هم في سجلات المشاهير، بما امتازوا به في مجتمعاتهم من القوة والشجاعة والفروسية، وقد أتاح لهم القدر فرصة التعمير؛ فعمروا طويلا، وبلغوا الشيخوخة، ووجدوا أنفسهم ضعفاء عاجزين، بعد أن قطفت زهرات شبابهم، وأصبح ماء نضارتهم غورا، فهاجت بهم الذكرى إلى أيام الشباب عندما كانوا أقوياء قادرين، يقول أبو عمرو بن العلاء:" ما بكت العرب شيئا ما بكت على الشباب وما بلغت به ما يستحقه[4]"،ومن الشعراء الذين بكوا شبابهم الأسود بن يعفر[5]، يقول :

(من الكامل)

| | |
|---|---|
| ولقد لَهوتُ وللشباب لذاذةٌ | بسُلافَةٍ مُزجَت بماءِ غَوادي |
| من خَمر ذي نَطف أغَنَّ مُنطق | وافى بها لدراهِمِ الأسجادِ[6] |
| يَسعى بها ذو تُومتين مُشَمِّرٌ | قنَأَت أناملَهُ منَ الفُرصادِ[7] |

تهيج الذكرى بالشاعر إلى تلكم الأيام الخوالي؛ أيام الشباب حيث ارتياد الحانات

ومعاقرة الخمر، ومثل هذه الأمور مقترنة غالبا بالقوة والحيوية، فهي مما يليق بالشباب ولا يحسن بالشيوخ . وقد يكون في استرجاع الماضي الجميل فرار من الحاضر الأليم، فالشاعر مثقل بتبعات الحاضر ويحاول التخفف منها بالعودة إلى عهد الشباب؛ تسلية لنفسه وتسرية لهمومه، إذ إن"هناك في العمل الفني هربا وعودة إلى الواقع معا[8]، يهرب إلى الماضي وعما قليل يعود إلى الحاضر، إلى الواقع المعيش، ليقول في ختام قصيدته:

فَإِذَا وَذَلِكَ لامَهَاهَ لِذِكْرِهِ وَالدَّهْرُ يُعْقِبُ صَالِحًا بِفَسَادِ[9]

مهما يكن من أمر الإنسان في الرخاء والنعيم والقوة، لا بد منقلبة حاله إلى الشدة والعذاب والضعف، فدوام الحال من المحال، والدهر ذو تقلب.

ويتأسف بعضهم على شبابه على لسان الآخرين، يبصرونه شيخاً كبيراً فيتعجبون من حاله وقد كان العهد به شابا نضرا فتيا يافعا، يقول عمرو بن قميئة[10] وقد جاوز تسعين عاما:

(من الطويل)

رَمَتني بَناتُ الدَهرِ مِن حَيثُ لا أرى فَكَيفَ بِمَن يُرمى وَلَيسَ بِرامي
وأهلكني تأميلُ ما لستُ مدركاً وتأميلُ عامٍ بعدَ ذاكَ وعامِ
إذا ما رآني الناسُ قالوا: ألمْ تكنْ جليداً حديث السن غير كَهَامِ[11]
كأني وقد جاوَزْتُ تسعين حِجَّةً خلَعْتُ بها يوماً عِذَارَ لِجامِي[12]

وهنا يرى الشاعر نفسه بعيون الآخرين؛ تأكيدًا لنضارة شبابه من جهة، ولشحوب شيخوخته من جهة أخرى؛ ليتضح البون الشاسع والهوّة العظيمة بين حياتين متباينتين؛ حياة الشباب حيث العنفوان والنّدى، وحياة الشَّيخوخة حيث الضعف والجفاف.

**التبرم من الدنيا :**

وهم رغم تشبثهم بالحياة وتعلقهم بملذاتها يضيقون بها ويتبرمون منها حين تدهمهم الخطوب وتفزعهم الطوارق وتقرعهم القوارع، ولا يستطيعون مواجهتها والتغلب عليها، فلا يجدون مناصا من ذمها والتضجر من تقلبها بهم، وأكثر أحوالهم استشعاراً لنوائب الدنيا وأهوالها حال معاينة الموت؛لذا كان الواحد منهم إذا أصيب بمصيبة الموت انطلق لسانه راثياً نفسه متبرما من الدنيا، يقول الأسود بن يعفر:

(من الكامل)

نامَ الخليُّ وما أحسّ رُقادي والهمُّ مُحتَضرٌ لَدَي وِسادي[13]
ماذا أؤملُ بَعدَ آلِ مُحرِّقٍ تَركوا مَنازِلَهُم وبعدَ أيادِ
أهل الخَوَرنق والسدير وبَارقٍ والقصر ذي الشُرُفاتِ من سنداد
أرضاً تخيّرها لدار أبيهم كعبُ بنُ مامَة وابنُ أمِّ دُؤادِ
جَرت الرياحُ على مكان ديارهم فكأنما كانوا على ميعادِ
ولَقد غَنوا فيها بأنعَم عيشةٍ في ظلِّ مُلكٍ ثابت الأوتادِ
نَزلوا بأنقرة يسيلُ عليهمُ ماءُ الفراتِ يجيءُ من أطوادِ
أين الذَين بنوا فطال بناؤهم وتَمتّعوا بالأهل والأولادِ
فإذا النعيمُ وكلُّ ما يُلهى به يوماً يَصيرُ إلى بِلى ونفَادِ
ولقد علمتُ سِوى الذي نبأتِنى أنَّ السبيلَ سبيلُ ذي الأعوادِ
إن المنيّةَ والحتُوفَ كلاهما يُوفي المخارمَ يرقبان سوادي
لن يَرضيا مني وفاءَ رَهينةٍ من دُونِ نَفسي طارفي وتِلادي[14]

إن إحساس الشاعر بدنو أجله جعله يتأمل في هذه الدنيا باستغراق، فرأي أن كل عطاء فيها يقابله انتزاع، وكل نعيم يعقبه بلى وتفاد، وكل حياة ينهيها موت، إذن ما دام الأمر كذلك فهذه الدنيا ليست جديرة بتعلق الإنسان بها، وليست حقيقة بطول المكث فيها.

وقد يكون من المناسب في هذا المقام ذكر قضية اتهام الشعر الجاهلي بمحدودية الأفق،وأنه لا يتجاوز إطار البيئة العربية والحياة الدنيا هو محض افتراء، ففي مثل هذه القصائد نجد الشاعر الجاهلي يحلق بـخياله في فضاءات رحبة، ويتجاوز حدود الزمان والمكان، ويعالج أو يلامس قضايا إنسانية مصيريّة عامّة من مثل الوجود والفناء.

وتبرمهم من الدنيا متات من هوانهم عليها، فهي وإن درت لهم بحلاوتها و وصلتهم بأسباب البقاء وعوامل الرخاء لا بدّ منتزعة ذلك كلّه، فما دام الأمر كذلك فهي خداعة غزارة، لا يطمع فيها عاقل ولا يركن إليها لبيب، أما اتّقاء غوائلها فهو مما يتعذر على البشر؛ لأنه فوق وسعهم وطاقتهم، ويظهر ذلك جليا فيما أوردنا من أبيات عمرو بن قميئة:

وتبرمهم من الدنيا وتذمرهم من البقاء لم يكن اتجاها عاما عندهم، فهم شديدو الالتصاق بها حال السعة، وإنما كان يأتي تذمرهم في أوضاع استثنائية وظروف قاهرة تفرض بوطأتها عليهم ذلك التبرم، كأن تتقدّم بهم السن أو تحل بهم مصيبة أو تنزل بهم بليّة، فيصيحون ضجرا وتذمراً بهذه الدنيا.

**الغربة الزمانيّة :**

ويقصد بها عيش الإنسان في عصر مختلف عما ألفه في سالف أيامه، وهي غربة يحس بها ويستشعرها ذلك الإنسان الذي يعمر طويلا، فيشهد أجيالا جديدة تصنع أعرافها وعاداتها وتوجهاتها، وتتبوأ المراكز السياسيّة والاجتماعيّة، فتقود القبيلة إلى حيث لا يرغب الكبار في السن، فيتنازعون السيادة والقيادة، وتنجح الأجيال الشابة ويخفت صوت الكبار وهكذا، فيدركون أنهم يحيون في زمان غير زمانهم، ويتعاظم شعورهم بغربتهم الزمانية كلما تقدمت بهم السن وفقدوا نظراءهم وأقرانهم، فإذا عُمّر أحدهم وطال بقاؤه دون أبناء جيله أدرك تمام الإدراك أنه يقبع في غربة زمانية لا تنتهي إلّا بالعودة الحقيقية التي لا يملك إنسان كائناً من كان منها مفرا أو مهربا، عودة الموت، وبهذه العودة ينهي غربته بين أجيال جديدة مختلفة عنه في كثير من أمور الحياة، ويحل بين نظرائه الذين سبقوه إليها.

الإحساس بالموت إحساس إنساني عام يبدأ مع ولادة الإنسان نفسه، لكنه يظن أنه في فسحة من العيش وأمن من الموت إذا كان في مقتبل العمر، وتأخذ طمأنينته وأمنه من الموت بالتّراجع كلما تقدمت به السن واقترب من الشيخوخة؛ لأن الإنسان بمرور الزمن وتعاقب الدّهور بات يدرك أن الأصل في أمر الحياة والموت أن يأتي الأخير على الكبير قبل الصغير لذا تعد الشيخوخة من أكثر البواعث شيوعا ونمطية في العصور والأمكنة المختلفة، وقد تعامل معهاالناس، فضلا عن الشعراء، وكأنها معادل موضوعي لانتهاء مسيرة الحياة، أو لحلول الموت وشيكاً[15]. وقد قالت العرب قديماً: "الشيب خطام المنية، والشيب نذير الموت[16].

وقالوا: الشيب مطية الأجل[17].

"والشيخوخة مما يزيد رعب الشاعر وفزعه؛ لأنها تدفعه نحو الموت دفعا، ويصبح قاب قوسين أو أدنى من قبره، فلم يكن بيده حيلة غير البكاء على شبابه، والحسرة واللوعة مما يعانيه من ضعف ووهن بعد قوة وصلابة[18].

وقد داهمت الشَيخوخة عددا من شعراء الجاهلية بعد أن أمهلتهم الحياة وأنظرتهم الأيام؛فقلت حيلتهم وضعفت همّتهم حتى أيقنوا بالموت وشارفت أنفسهم على الهلاك؛ فوجدوا الفرصة سانحة ليرثوا أنفسهم قبيل الموت؛ ففاضت قرائحهم بأشعار رثائيّة عظيمة القيمة، أثرت الشعر الجاهلي وأمدته بأسباب الخلود؛ لأنها تعبّر بامتياز عن مشاعر إنسانية عامة.

**الغربة المكانية :**

لعل حب الإنسان للمكان الذي ينشا فيه ويترعرع في جنباته فطرة فطر الله الناس عليها؛ تحقيقا لعلّة تعمير الكون، وقد كان الإنسان ولا يزال لصيقا بوطنه نازعا إليه مقيمًا على حبّه،ويبدو أن الشعوب كلما ظلّت قريبة بحال البدائية والبساطة في عيشها وتفكيرها كانت أشدّ التصاقًا بالوطن والأرض، وهذا ما تنطق به أشعار الجاهليين، إذ شكل الحنين إلى المكان في شعرهم ظاهرة بارزة.

باغت الموت غير واحد من شعراء الجاهليّة في أرض الغربة، فركب نفوسهم اليأس واستوطن قلوبهم الهمّ، فتضاعفت عليهم مأساوية المقام، فانبرت حناجرهم تصدح بألحان الحزن ، لتنتظم لديهم قصائد شعرية تنبض بأحاسيس إنسانيّة جيّاشة، تنفطر عند قراءتها القلوب وتنصدع لها الكبود.

وتؤكد الدراسات النفسية أنّ الأماكن التي استمتعنا بها ونرغب فيها، وشهدت لحظات عزلتنا ووحدتنا، أثيرة على قلوبنا عزيزة علينا، وحنيننا إليها دائم لا ينقطع[19] "ويتضاعف الإحساس بالموت عند البعد عن الديار، فعلى الرغم من اعتياد العربي التنقل والتّرحال، إلا أن الموت هزّ مشاعره، وأيقظ فيه الإحساس بالغربة فاجتمعت على نفسه غربة الموت، وغربة الدار، وهذا ما ذكره امرؤ القيس[20] حين كانت غربة الدار ووحشته هي الهاجس الأكثر ألماً، ولعل هذا الإحساس هو الذي دفعه إلى التماس جوار لقبره وأنيس يخفف من وحدته، فنادى[21]

(من الطويل)

أَجَارَتَنَا إنَّ المَزَارَ قَرِيبُ وَإنِّي مُقِيمٌ ما أَقَامَ عَسِيبُ
أَجَارَتَنَا إنَّا غَرِيبانِ هَاهُنا وكلُّ غريبٍ لِلْغَرِيبِ نَسِيبُ[22]

ويفاضل أمرؤ القيس بين ميتتين؛ ميتة في ارض الغربة والأخرى في أرض الوطن، إنه يستعذبه في أرضه التي نشأ فيها ؛ تأكيدا لتعاظم شعوره قبيل الموت بالغربة، وشوقًا إلى مرابع أرضه التي تربطه بها علاقة حميميّة وثيقة لا تنبت، يقول:

(من الوافر)

ولَوْ أنّي هَلَكْتُ بدارِ قَوْمي لَقُلْتُ الموتُ حَقٌّ لا خُلُودَا
وَلَكِنِّي هَلَكْتُ بأرْضِ قَوْمٍ بَعِيدٍ مِنْ دِيَارِكُمْ بَعِيدا
أَعَالِجُ مُلْكَ قَيْصَرَ كُلَّ يَوْمٍ وأجدِرْ بالمنيّةِ أن تَعُودا[23]

إن الموت حق لا مفر منه، لكن الذي آلم قلب الشاعر وكسف خاطره مكان الموت؛ إنها الغربة التي تتصعد نفس الشاعر بما تحمله من معاني المرارة والعذاب

والقسوة، حتى لقد جمل له قبحُ الغربة الموت في الوطن حلَّى صيره أمنيّة له جد في طلبها ولم يفلح"[24]، لذا تجده في بعض شعره الذي رثى به نفسه يقول

(من الوافر)

وقد طَوَّفْتُ في الآفاقِ حَتى رضيتُ من الغنيمة بالإياب[25]

إنه الآن في مرضه وغربته لا يلتمس إلا العودة إلى دياره، ولم يعد يعلل نفسه بما يطمح إليه من الثأر لأبيه، واستعادة ملك أجداده الضائع، لقد أذل المرض كبرياءه، ونالت الغربة منه، فأوقعا به وقعة الدّهر.

والهلاك في دار الغربة بعيدا عن الأهل والأصحاب رأس هرم الحزن ومنتهاه، لأن الغربة في مثل هذا المقام غربة مركّبة؛ غربة عن الدّيار وغربة عن الدّنيا، فهذا أفنون التغلبي[26] يهلك في دار غربة موحشة، ويبكي على نفسه حيث سيترك وحيدا ثاويا في القبر، ويرتحل عنه أصحابه الذين صحبوه طوال سفرهم؛ ليقبع في غربة حقيقيّة لا وصال بعدها ولا لقاء، يقول:

(من الطويل)

أَلاَ لَسْتُ في شَيْءٍ فَرُوحاً مُعاوِيَا ولاَ المُشْفِقاتُ إِذْ تَبِعْنَ الحَوازِيَا
فَلاَ خَيْرَ فِيما يَكْذِبُ المَرْءُ نَفْسَهُ وتَقْوَالِهِ لِلشَّيْءِ: يَا لَيْتَ ذَا لِيَا
فَطَأْ مُعْرِضاً، إِنَّ الحُتُوفَ كَثِيرَةٌ وإِنَّكَ لا تُبْقِي بِمالِكَ باقِيَا
لَعمْرُكَ ما يَدْرِي امْرُؤٌ كيْفَ يَتَّقِي إِذَا هُوَ لَمْ يَجْعَلْ لَهُ اللهُ وَاقِيَا[27]

**الشعور بدنو الأجل :**

الأجل هو المصير المحتوم للإنسان، لا يملك فكاكا من براثنه مهما اجتهد في طلب المحاولة، وقد سعى الإنسان منذ الأزل وراء الخلود متعلقاً بكل ما أتيح له من أسباب، فكان الخلود أس غاياته التي تطاول إليها همه وهمته، غير أنه كان يعود في كل مرة بالخيبة والخسران، حتى أيقن بحتمية الموت، معلنا انقياده لسلطان القدر واستسلامه المطلق لجبروت الموت. وتبدو الصورة أشد قتامة وأكثر مأساوية لدى المجتمعات الوثنيّة، أو تلك التي لم تحفل بإيمان يخفف وطأة الموت، إيمان بحياة أخرى ينتقل إليها الإنسان, لتسكن نفسه ويطمئن قلبه.

والمجتمع الجاهلي من الوثنية بمكان[28]، حيث كان أفراده يقفون من الموت موقف النفور، ظناً منهم أنه المآل الأخير الذي ينتهي إليه الإنسان، فهو في عرفهم المارد الجبار الذي يخرجهم من دائرة الوجود.

"وقد أدرك الشاعر الجاهلي مصيره وعيا مؤلما يحفه الاستسلام والقبول

بمصير مجهول غامض، فالإنسان بطبيعته ينفر من الأذى ويستعد له ويتحوّط، ولكن مع الموت يسير برضا المقهور على أمره، المستسلم لمصيره، البشر جميعا ماضون في رحلة الموت، يحثون الخطا نحو نهايتهم، إلى حيث صار جميع من سبقهم في هذه الرحلة"[29].

وقد ظل الجاهلي مسكونا بالقلق من قادم منتظر، قلقاً تهدأ ناره وتخبو ما كان الإنسان في صحة وشباب وأمن وأمان، ويضطرم سعيره ما انقلبت حاله إلى المرض والشيخوخة والتهديد؛ لذا بلغت حالة ترقبه الموت أعلى درجاتها، وتصاعد إحساسه بدنوّ الأجل.

**ثانياً ـ أهميته الدراسة :**

**الكشف عن عقائد الجاهليين في مسألة الحياة والموت :**

للتعرّف على عقائد عرب الجاهلية، قبل الشروع في استنطاق النّصوص، نورد تصنيف الشهر ستاني الّذي جعلهم في الأصناف الآتية[30]:

1- منكرو الخالق، والبعث، والإعادة. وقالوا بالطبع المحيي، والدّهر المفني.

2 منكرو البعث والإعادة، وهم مقرون بالخالق وابتداء الخلق والإبداع.

3- منكرو الرسل، عباد الأصنام، وهم يؤمنون بنوع من الإعادة، وزعموا أن الأصنام شفعاؤهم عند الله.

4- اليهود والنصارى.

5- الصابئة وعبدة الملائكة والجن، ويعتقدون أن الملائكة بنات الله.

6- المؤمنون بالله واليوم الآخر، وينتظرون النبوّة. وكانت لهم سنن وشرائع، وهم أتباع الذين الحنيفي، دين النّبي إبراهيم -عليه السلام.

ولا يعني وجود هذه الأديان تمكنها من قلب الجاهلي، وإنما كان الدين عندهم دين بساطة وسذاجة وتقشف؛ لأنه يمثل في مجمله بقيّة دين إبراهيم عليه السلام، وصلهم من وراء القرون المتطاولة مشوها مشوبا بغير قليل من الخرافات والأساطير، وتحولوا مع مرور الزمن وتحكم الجهل وعدم القرار إلى عبادة الأصنام وتعظيم الأوثان التي ظنوا أنها تقربهم إلى الله زلفى، فكانت الوثنية دينهم الغالب[31].

لا ريب أن النصوص التي نظمها أصحابها قبيل موتهم هي الأقدر على استكشاف عوالم الإنسان الجاهلي الداخلية لمعرفة حقيقة موقفه من الموت مهما كانت عقيدته التي يعتقدها، فهذا أفنون التغلبي يرثي نفسه عندما أيقن بالموت بأبيات لا تحفل بكثير إشارة إلى عقيدة النصرانية التي ذكر المؤرخون والأدباء استشراءها في قبيلة

تغلب[32]، يقول:

(من الطويل)

أَلاَ لَسْتُ في شَيْءٍ فَرُوحاً مُعاوِيَا ... ولاَ المُشْفِقاتُ إِذْ تَبِعْنَ الحَوازِيَا[33]

فَلاَ خَيْرَ فِيما يَكْذِبُ المَرْءُ نَفْسَهُ ... وتِقْوَالِهِ لِلشَّيْءِ: يَا لَيْتَ ذَا لِيَا

فَطَأْ مُعْرِضاً، إِنَّ الحُتُوفَ كَثِيرَةٌ ... وإِنَّكَ لا تُبْقِي بِمالِكَ باقِيَا

لَعمْرُكَ ما يَدْرِي امْرُؤٌ كيفَ يَتَّقي ... إِذَا هُوَ لَمْ يَجْعَلْ لَهُ اللهُ وَاقِيَا

كَفَى حَزناً أَنْ يَرْحَلَ الحَيُّ غُدْوَةً ... وأَصْبحَ فِي أَعْلَى إِلاَهَةَ ثاوِيَا[34]

إن الإشارات الدينية التي تضمنتها الأبيات سطحية لا توحي بعقيدة دينية سماوية متأصّلة في نفس الشاعر، وذكره كلمة الله ليس بذي بال: لأنهم يقرون بوجود الله وبخلقه السماوات والأرض، وهذا ما أورده القرآن الكريم عن حالهم، يقول تعالى: "وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ"[35].

ويقول تعالى: " وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ"[36], والشاعر يذكر الله في مقام الوقاية من السوء؛ فالله وحده هو الواقي الحقيقي الذي يقيهم السوء. وغياب البعث والحياة الأخرى يؤكد اضطراب اليقين لدى الشاعر في الإيمان بحياة أخرى بعد الموت، رغم أنه من قبيلة عرفت بنصرانيتها في الجاهلية.

أما عدي بن زيد العبادي[37] الذي عُرف بنصرانيته، فنجد شعره حافلا بالإشارات الدينية، سيّما تلك التي قالها في السجن قبل الموت، غير أنه لم يظهر في حبسيّاته ما يوحي بإيمان الرجل بحياة أخرى بعد الموت، فقصائده تتمركز حول معاني العتاب والاستجداء والاسترحام، يعاتب الملك النعمان على صنيعه به، وهو منه من هو؟! ويستجدي العفو والإطلاق، ولا يُظهر الرجل عزاء لنفسه بحياة أخرى بعد الموت يصيب فيها حقه ممن ظلموه، وتجد في قصائده التي توحي بجزعه وقرب حينه وصية لإحداهن - وقد تكون زوجه- ببكائه والثناء عليه بصفات الشجاعة والكرم، وكأنه يلتمس العزاء فيها بدوام الذكر الحسن بعد الموت، والمنطق يقتضي أن يلتمس ذلك - وقد جزع - في الحياة الأخرى، حيث العدل الإلهي المطلق، يقول:

(من الخفيف)

قُل لأُمِّ البنَينِ إن حانَ مَوتي ... تَبكِني لِلنِّزالِ تَحتَ العَجاجِ

وَللبس الدِّلاَص[38] يَغشَى ثيابي ... فَوقَها بَيضَةٌ[39] كضَوءِ السِّراجِ

وَلِرفعي على الرَّبَاوَةِ ناري ... عَلَماً لِلمُضلِّ واللّيلُ داجِ

وَلِكَرِّي الكُمَيتَ في حَومَة ال ... مَوتِ مَكاناً أَقلّهُم فيهِ ناجِ[40]

وقصائد عديّ في رثاء نفسه كثيرة، وكلها قالها في السجن، بعضها يوحي بأمل كبير في الحياة، حيث كان يعول على ما كان بينه وبين النعمان من علاقة وطيدة، وصداقة أكيدة سيماو وهو الذي أوصل النعمان إلى العرش. وبعضها الآخر يوحي بجزعه واستسلامه للموت

**تسجيل جانب من أيام العرب و وقائعها :**

تاريخ عرب الجاهلية زاخر بالحوادث والوقائع ؛ وذلك لطبيعة حياتهم القاسية التي فرضتها ظروف البيئة الصحراوية، فهم لا ينفكون يتتبعون مساقط الغيث ومنابت الكلا لمواشيهم وأنعامهم التي شكلت عماد اقتصادهم سيما أولئك الذين مكنوا بعيدا عن المدن وحواضرها؛ لذا كان التصادم هو السمة الغالبة في حياتهم، يتصارعون على الأرض والماء، ويغزو بعضهم بعضا في سلسلة لا تنتهي من الحوادث والوقائع التي عرفت لاحقا بالأيام، وقد كانت تلك الأيام تولد أياما أخرى وهكذا دواليك.

وقد كان الشعر الجاهلي الوثيقة التي نقلت لنا تلكم الأيام في ظل غياب التاريخ؛ لعدم توفر أسبابه سيما الكتابة، إذ كان بشكل الشاعر آنذاك أشبه ما يمكن تسميته في الوقت المعاصر بوزير الإعلام يذود عن حياض قبيلته ويسجل مآثرها ويخلد أمجادها لذا تظل القصيدة الجاهلية شاهدا أمينا على عصرها، كاشفة كل مقوماته، قادرة على احتواء تجارب الشعراء، وتاريخ مجتمعاتهم، بكل تفاصيله، فهي سجل حافل بالأحداث كبيرها وصغيرها وهي بمثابة التاريخ الأمين الذي تلتقي في بوتقته الأحداث، وتتعدد أساليب البطولات، فكان ديوان الشعر الجاهلي -في مجمله- موزعا بين مختارات ومجموعات من معلقات ومفضليات وأصمعيات وجمهرة لأشعار العرب، وكانت كلها بمثابة الملحمة الكبرى التي تعدد مؤلفوها، وتوحد جمهورهم الذي تلقاها عنهم فناً أصيلاً يتناوله كل أبناء القبيلة بالرّواية والحفظ في صدورهم، قبل عصور التدوين والتخصص والمناهج وصيغ التأليف والتّصنيف.

حفظ لنا شعر رثاء النفس جانبا لا بأس به من تلك الأيام، فذكر بعضها وسجل أحيانا تفاصيلها، أمارة ذلك كثرة تردد هذه الأشعار في كتب الأيام والمغازي، بما يدل دلالة واضحة على اعتماد المؤرّخين على هذه الأشعار في توثيق جوانب حياة العرب السياسية والحربيّة؛ فتجد الشاعر قد أصيب في مقتل في يوم من الأيام؛ ففاضت قريحته يرثي نفسه فيذكر ما كان من أمر ذلك اليوم، من ذلك الشاعر بشر بن أبي خازم الأسدي، يقول:

(من الوافر)

أَسَائِلَةٌ عُمَيْرَةُ عَنْ أَبِيهَا خِلاَلَ الجَيْشِ تَعْتَرِفُ الرِّكَابَا
تُؤَمِّلُ أَنْ أَؤُوبَ لَهَا بِنَهْبٍ ولمْ تَعْلَمْ بِأَنَّ السَّهْمَ صَابَا
فَإِنَّ أَباكِ قَدْ لاَقَى غُلامًا مِنَ الأَبْنَاءِ يَلْتَهِبُ التِهابا
وإنَّ الوَائِلِيَّ أَصَابَ قَلْبِي بِسَهْمٍ لَمْ يَكُنْ يُكْسَى لُغَابَا[41]

وكان بشر قد شن غارة على الأبناء وهم وائلة ومزة ومازن وغاضرة وسلول، أبناء صعصعة بن معاوية سوى عامر، فاعترض بشرا غلام من وائلة فحاول بشر أسره، غير أن الغلام عاجله بسهم أصابه في مقتل، ثم ظفر به بشر، وأسره، وعندما أيقن بشر بالموت أطلقه في بعض الطريق، وقال له انصرف إلى أهلك وأخبرهم أنك قتلت بشر بن أبي خازم الأسدي، اعترافا من بشر بشجاعة الغلام وجرأته، وهو كذلك دليل على فروسية بشر ومروءته. ثم تحلق قومه حوله وقالوا له أوصِ، فقال هذه القصيدة وهو يجود بنفسه[42].

كشفت هذه القصيدة عن جانب من حروب بني أسد مع بني صعصعة بن معاوية، بما يؤكد أهميّة هذه الأشعار، فقد اعتمد عليها المؤرخون في توثيق حياة عرب الجاهلية.

وممن قتل في أيام العرب المشهورة الشاعر سفيان بن مُجاشع، قتل في يوم الكُلاب الأول, وكان من خبر هذا اليوم أن بكر بن وائل زحفت بمن معها من قبائل حنظلة وبني أسيد بن عمرو بن تميم، وطوائف من بني عمرو بن تميم والزباب، فنزلت الكُلاَب، وهو ماء بين البصرة والكوفة، وأقبل سلمة بن الحارث في بني تغلب والنمر وأحلافها، وفي بني سعد بن زيد مناة بن تميم ومن كان معهم من قبائل حنظلة، يريدون الكلاب، وكان أول من ورد الكلاب من جموع سلمة بن الحارث سفيان بن مجاشع، وكان نازلا في بني تغلب مع إخوته لأمه، فقتلت بكر بن وائل ستة بنين له فيهم مُرّة بن سفيان[43]، فقال سفيان بن مجاشع:

(من المنسرح المنهوك)

الشيخُ شيخٌ ثَكلانْ والجوفُ جوفٌ حَرّان
والورِدُ وِردٌ عجلانْ أَشْكَو إليكَ مُرَّةَ بنَ سُفْيانْ[44]

إن استعراض أخبار هذا اليوم من أيام العرب في المصادر المختلفة ينبئ عن أهمية هذه الأشعار في توثيق تلكم الحوادث والوقائع، فلا يكاد يخلو مصدر منها)

**توثيق بعض جوانب حياة الجاهليين الاجتماعية :**

حفل مجتمع العصر الجاهليّ بمنظومة اجتماعية تلتقي في أصولها العامة،

وتفترق في فروعها الخاصّة بكلّ جماعة قد تستقلّ بعادات أو طقوس اجتماعيّة تبعا لدينها أو بيئتها أو غير ذلك، والمصدر الرّئيس في معرفة هذه المنظومة هو الشعر الجاهليّ؛ لأنّه "القائم عندهم مقام الآثار المنقوشة والرقوق المكتوبة عند غيرهم من أهل الحضارة القديمة من أمم التاريخ، وإنك لتنظر في صفحة الشعر الجاهلي فتنعكس على خيالك من مرآته صورة واضحة لتلك البادية العربية، تترسم فيها على ذلك البساط الممدود من رمال الصحراء مضارب خيامهم، وملاعب ولدانهم، وأسماء منازلهم، وموارد مياههم ...، وكثيرا من أيامهم ووقائعهم وعاداتهم وأخلاقهم، مما صح أن يتخذه المؤرخون مصدرا يعتمدون عليه في وصف هذه الحياة الجاهلية[45]".

ومما يتصل بالحياة الاجتماعية اتصالا وثيقا الفرح والحزن، ففي كل حال منهما تنتظم الناس عادات وتقاليد بعينها، وما دام البحث يدور حول موضوع الرثاء فإن الحديث في هذا المبحث سيكون في الحال الثانية حال الحزن.

والحزن حالة نفسية لها طقوس اجتماعية عامة تستتبع بعادات وطقوس بحسب مسبباتها ، والموت من أظهر دواعي الحزن عند الجاهليين؛ بسبب ما أحاطه به الأحياء من مظاهر الفزع والألم؛ فصراخ تنفطر له المرائر، وبكاء يذيب لفائف القلوب، والناس حول الميت بين ساهم البصر، ومطرق الطرف، ومكروب النفس، وناكس الرأس، يتأوه الآهة تنقصف منها ضلوعه ، ويزفر الزفرة تتصدع منها نفسه[46] لذا كان لعرب الجاهلية عادات يمارسونها إذا فقدوا عزيزا، ويلعب الحزن دورا كبيرا في حياة الشرقيين، بل نستطيع أن نقول إن الحزن أظهر في حياتهم من الفرح، وإن المبالغة في إظهاره عندهم هي من المظاهر البارزة في مجتمعاتهم[47]

سجلت النصوص التي توافرت للدّراسة جملة من العادات والطَقوس التي تؤدى في مقام الموت، ومن أبرز الشعراء الذين سجلوا ذلك الشّاعر الأفوه الأودي في قصيدة له قبيل موته، وقد امتازت هذه عن غيرها في استغراق صاحبها في سرد حكاية القوم حال موت أحدهم ابتداء بنعيه وانتهاء بدفنه، يقول:

(من الطويل)

وجاءَ نِساءُ الحَيِّ مِن غَيرِ أَمرَةٍ ... زَفيفاً كَما زَفّت إِلى العَطَنِ البَقَر[48]

وَجاؤوا بِماءٍ بارِدٍ وَبِغِسلَةٍ ... فَيا لَكَ مِن غُسلٍ سَيَتبَعُهُ عِبَر[49]

فَنائِحَةٌ تَبكي وَلِلنَوحِ دَرسَةٌ ... وَأَمرٌ لَها يَبدو وَأَمرٌ لَها يُسَر[50]

وَمِنهُنَّ مَن قَد شَقّقَ الخَمشُ وَجهَها ... مُسَلَّبَةٌ قَد مَسَّ أَحشاءَها العِبَر[51]

فَرَمّوا لَهُ أَثوابَهُ وَتَفَجَّعوا ... وَرَنَّ مُرِنّاتٌ وَثارَ بِه النَفَر[52]

إلى حُفرَةٍ يَأوي إِلَيها بِسَعيِهِ فَذَلِكَ بَيتُ الحَقِّ لا الصوفُ وَالشَعَر
وَهالوا عَلَيه التُربَ رَطباً وَيابِساً أَلا كُلُّ شَيءٍ ما سِوى تِلكَ يُجتَبَ[53]

احتفظت الأبيات بصنيعهم في مقام الموت فعندما ينعي أحدهم تجتمع نساء الحي بسرعة كبيرة، ويبدو أنه ذكر النساء دون الرجال لما للمرأة من حضور بارز في هذا المقام، وهي ذات العاطفة الكبيرة التي تجعلها تجيد الحزن والنواح، ثم حضروا الماء والغسلة لتغسيله.

وقد ذكرالطبري[54] والشهرستاني[55] أن الجاهليين يغسلون الموتى، ثم تبكيه النساء، ويذكر النائحة، وهي المرأة المستأجرة للنواح لأن "الولولة والنياحة على الميت من التقاليد التي تشدد فيها أهل الجاهلية، وكانت عندهم سمة من سمات التقديس[56]".

ثم لملموا ثيابه لتكفينه، وكان بعض عرب الجاهلية يكفنون موتاهم[57] بقماش أبيض، يلفون به الميت، ويربطون الرأس بمنديل، ويربطون يدي الميت وقدميه برباط خاص[58]، وحينها ترتفع أصوات النساء بالبكاء، ويحمله القوم إلى حفرة القبر، وبوضع فيها، ثم يهال عليه التراب.

ومن الشعراء الذين ذكروا التكفين، يزيد بن خذاق، يقول:

(من البسيط)

إذ غمضوني وما غمضت من وسن وقال قائلهم أودى ابن خذاق
قَد رَجَّلُونِيَ وَما رُجِّلتُ مِن شَعَثٍ وَأَلبَسُونِي ثِياباً غَيرَ أَخلاقِ[59]

وتظهر رواية مختلفة لأبيات يزيد بن خذاق، أنهم كانوا يطيبون موتاهم، يقول:

وطَيَبوني وَقالوا أَيُّما رَجُلٍ! وَأدرَجوني كَأَنَّي طَيُّ مِخراقِ[60]

وحمل الميت على أعناق الرجال من الطقوس التي ذكرها غير شاعر، يقول يزيد بن خذّاق:

ورَفَعوني وَقالوا أَيُّما رَجُلٍ وَأَدرَجوني كَأَنَّي طَيُّ مِخراقِ
وَأَرسَلوا فِتيَةً مِن خَيرِهِم حَسَباً لِيُسنِدوا في ضَريحِ التُّربِ أَطبَاقي[61]

"ويحمل سرير الميت الذي وضع عليه على الأكتاف لإيصاله إلى قبره، ويقال له "النّعش"كذلك، وقد يحمل في محفة، وقد يحمل على الإبل لإيصاله إلى قبره إذا كان القبر بعيداً، ويتبارى الأقرباء الأصدقاء في حمل نعش الميت احتراماً له وتقديراً لشأنه"[62].

ومن الشعراء الذين ذكروا إيداع الميت القبر، علقمة بن سهل، يقول:

(من الطويل)

وَدُلِّيتُ في زَوْراءَ ثُمَّتَ أعنَقوا    لشأنِهِمُ قَدْ أفْرَدُونِي وشَانِيا[63]

وكانوا إذا أودعوا الميت القبر دعوا له بقولهم: "لا تبعد" أي أنه وإن ذهب علهم سيبقى على الدوام في قلوبهم[64]، يقول قراد بن غوية:

(من الطويل)

وَقالُوا ألاَ لا يَبْعدَنَّ اَختِيالُهُ[65]    وصَوْلَتُهُ إذا الْقُرُومُ[66] تَسامتِ[67]
وَما الْبُعْدُ إلاّ أنْ يكُونَ مُغيَّباً    عَن النَّاس منِّى نجْدتي وقسامتي[68]

وذكر الألوسي أن لهم من هذا الدعاء غرضين: الأول استعظام موت الرجل الجليل وكأنهم لا يصدقون بموته، والغرض الآخر الدعاء للميت بان يبقي ذكره ولا يذهب لأن بقاء ذكر الإنسان بعد موته بمنزلة حياته[69].

وكان من عادة النساء إذا فقدن عزيزا أن يحلقن الشعر؛ إظهارا للتفجع واللوعة على الميت، من ذلك ما جاء في شعر لقيط بن زرارة في مخاطبة ابنته دختنوس، يقول:

(من الرجز)

يا لَيْتَ شِعْرِي عَنْكِ دَخْتَنُوسُ    إذا أتَاها الخَبَرُ المَرْمُوسُ[70]
أتَحْلِقُ القُرُونَ أمْ تَمِيسُ؟    لا بَلْ تَمِيسُ، إنَّها عَرُوسُ[71]

ومن عادتهم أن يأتوا قبور الأحبّة فيسلموا على أهلها، ويدعوا لهم بالسقيا؛ لأن الماء أصل الحياة وعمادها، وكأنهم بالماء يبقون على صاحبهم الميت غضا طريّا، وكان ذلك شكل من أشكال بعث الحياة في الأموات، وقد يكون لذلك أصول دينية بعيدة توارثها الخلف عن السلف، يقول المتلمّس[72] يوصي أصحابه قبل موته:

(من الطويل)

خَليلَيَّ إمّا مُتَّ يَوماً وَزُحزِحَت    مَناياكُما فيما يُزَحزِحُهُ الدَهرُ
فَمُرّا عَلى قَبري فَقُوما فَسَلِّما    وَقُولا سَقاكَ الغَيثُ وَالقَطرُ يا قَبرُ
كَأَنَّ الَّذي غَيَّبتَ لَم يَلهُ ساعَةً    مِنَ الدَهرِ وَالدُنيا لَها وَرَقٌ نَضرُ[73]

يجعل الشاعر مرور أصحابه على قبره مع سلامهم عليه ودعائهم له بالسقيا، شرطاً لو فائهم له، والدعاء بالسقيا لقبر الميت يكثر في شعر الرثاء عامة[74].

وهكذا نجد أن أشعارهم في رثاء أنفسهم قد أسهمت إلى حد بعيد في تبين عادات القوم وطقوسهم في مقام الموت، ابتداء بالاحتضار، ومرورا بالنعي والبكاء والتّغسيل والتكفين والتطييب وحمل الميت في محفة على أعناق الرجال، وإيداعه حفرة القبر، وواجبات الحزن والبكاء وواجبات الثأر والانتقام، وانتهاءً بواجبات الزيارة للقبر والدعاء له بالسقيا؛ وفاء وعرفانا للميت.

## خاتمة :

الحمد لله أولا وآخرا الحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات، الحمد لله الذي منح الصبر والأناة في إعداد هذه الدراسة المتواضعة التي نسأل الله أن تكون باكورة متبوعة، وأن تكون فاتحة لغيرها من الدراسات النفسية التي تثري المكتبة العربية، أما بعد

فإن تتبّع النُصوص الرثائيّة في النّفس شاق من جهتين، الأولى كثرة المصادر التراثية القديمة، والأخرى تمييز النّصوص مجال الدراسة عن غيرها من النُصوص التي تلتقي معها في جوانب كثيرة. ثم إن استكناه نفسية الإنسان ينطوي على مخاطر ومزالق، سيما نفس الجاهلي المقبل على الموت فهي مفازة واسعة الرحاب يتوه فيها الرواد وبئر بعيدة الغور تضل فيها المسابر، ومهما يكن من أمر فقد أعاننا الله على مخر عباب هذا البحر الهائج المائج، وحاولا أن نستقصي تلكم النصوص في مظانها الأصيلة في أمّات كتب الأدب والتاريخ والتراجم، وحاولنا أن نضيء جانبا من تلكم النّفسيّات حال إقبالها على الموت، وبذلنا في ذلك ما في الوسع من جهد وطاقة. وبعد تطواف طويل في دوحة تراثنا العربي، وقراءة متأنية مستوعبة لتلكم الأشعار، ومراجعات طويلة في كتب الأدب والنقد وعلم النّفس قديمها وحديثها خرجت هذه الدراسة في هذا الثوب، وأسفرت عن جملة من النتائج التي يمكن إثباتها على النحو الآتي:

1ـ كان الشاعر الجاهلي يرثي نفسه إذا أحس بدنو أجله، وأكثر المثيرات لهذا الإحساس الاحتضار والمرض والشيخوخة والغربة وفقد الشباب، وكلما اقترب الواحد منهم من الموت كانت عاطفته أكثر صدقا وأشدّ حزنا، من مثل ما نجده عند الشعراء الذين أمهلهم القدر برثاء أنفسهم في سويعات حياتهم الأخيرة.

2ـ كشفت هذه النصوص عن تشبث الجاهليّ بالحياة أيما تشبث، غير أنه كان يتنازعه شعوران متناقضان؛ حبّ الحياة والتعلق بها والاستسلام لحتم الموت. وتمنّى بعضهم الموت ورحب به عند نزوله ليس بغضا للحياة وإنما بغض لحياة الذل والهوان عندما يقبعون في غربة زمانية لا يستطيعون التعايش معها حال شيخوختهم أو مرضهم، حيث تترك هذه الغربة فى نفوسهم ندوباً غائرة مؤلمة يفضلون الموت عليها، وقد كانوا

في سالف عهدهم يتمتعون بمكانة سامقة بين نظرائهم.

3ـ غاية الجاهلي من رثاء نفسه تتشعب في اتجاهين يلتقيان؛ الأول تسطير اسمه في سجلات الخلود عندما أيقن بفناء جسده، والآخر حث الآخرين على رثائه تحقيقا للخلود.

4ـ توافرت هذه القصائد والمقطوعات على أخبار ومعلومات تتصل بمشاهير أيام العرب في الجاهلية، من مثل يوم ذي قار، ويوم شعب جبلة، وغيرهما بما يؤكد على أهمية هذه الأشعار في إسدال الستار عن حيثيات أيّامهم وملابساتها وظروفها، وتزداد أهميتها إذا جمعناها إلى غيرها من الأشعار في الأغراض الأخرى؛ وهي مما لا غنى عنه في توثيق حياة عرب الجاهلية مطلقاً.

5ـ أسهمت هذه النصوص إلى حد بعيد في تبين عادات القوم وطقوسهم في مقام الموت، ابتداء بالاحتضار، ومرورا بالنعي والبكاء والتغسيل والتكفين والتطييب وحمل الميت في محفة على أعناق الرجال، وإيداعه حفرة القبر، وواجبات الحزن والبكاء و واجبات الثأر والانتقام، وانتهاء بواجبات الزيارة للقبر والدعاء له بالسقيا؛ وفاء وعرفانا للميت.

6ـ وكشفت أشعارهم عند حلول أجلهم عن مكنونات أنفسهم حيال الوجود والفناء والحياة والموت، فتشي بمعتقداتهم وأفكارهم وخواطرهم وهواجسهم، وقد بدا واضحا أن الجاهلي مستسلماً لسلطان القدر خاضعاً لجبروت الموت، غير أنه كان مقبلاً عليه وقد امتلأت نفسه بالقلق على مصيره المحتوم.

7ـ عزّى الجاهلي نفسه عن قارعة الموت بهلاك من سبقه ممن هم أكثر منه قوة وأشد بأسا ، وعزّاها كذلك بما حققه في أيام شبابه من بطولات وما يتصف به من صفات الشجاعة والكرم والذود عن حياض قومه، وغيرها من المحامد والسجايا.

وإذا كانت التجربة الشعرية في غير رثاء النفس محط نقاش وجدال وشك، فإنه ما من ريب في تحققها في هذا الغرض، فأي تجربة غير الموت يمكن أن يداخلها التصنع أو يخامرها التكلف أو يخالجها التقليد، وأنى يكون ذلك في تجربة الموت؟! كيف يمكن للإنسان أن يتكلف أو يتصنع أو يقلّد قبالة الموت؟!.

8ـ غلب على هذه النصوص طابع المقطوعات, وتباينت هذه القصائد والمقطوعات في بعض معانيها وكيفية ترتيبها، واختلاف مطالعها وخواتيمها، غير أنها في المحصّلة منظومة في عقد الرّثاء مسلوكة في سلك البكاء، إذ إن السياق العام والحالة الشعورية والموقف النَّفسي تخلق فيها وحدة تنتظم جميع أجزائها وتؤلف بين معانيها،

وغلب عليها الفكر التأملي وتصوير الهواجس والانفعالات؛ لذا لم تلتزم هذه الأشعار سنن القصيدة التقليديّة، وإنّما اختطّت لنفسها منهجا مغايراً قوامه رثاء النّفس لرثاء النّفس، فليس في مقام الموت فضل قريحة تُنفث غير الرّثاء.

9ـ دلت صورهم وأخيلتهم على شدّة قلقهم على مصيرهم وخوفهم من الموت، إذ كانوا يجعلون أنفسهم مطلوبين والموت طالب، ويجعلون أنفسهم فرائس والموت حيوانا فاتكما يترقبهم على الدّوام.

وبعد، فهذه أبرز النّتائج التي انتهت إليها الدراسة، وإن كان ثمَّة توصية، فليست إلا تلك التي تستحثّ الهمم وتستنهض العزائم للمقارنة بين العصرين الجاهلي والإسلامي؛ لتبين مواطن الافتراق ومواضع الالتقاء.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين

**الهوامش :**

1 " الفيومي، محمد إبراهيم - القلق الإنساني مصادره - تياراته- علاج الذين له 116
2 2 الصفدي، مطاوع- فلسفة القلق 42
3 إسماعيل، عز الدين - روح العصر 21.
4 ابن عبد ربه العقد الفريد 361/2.
5 هو الأسود بن يعفر بن جندل بن نهشل من زيد مناة من تميم، شاعر متقدم فصيح من شعراء الجاهلية، ليس بالمكثر، وقصيدته الدالية "نام الخلي وما أحس رقادي والهم محتضر لدي وسادي" معدودة من مختار شعر العرب، وحكمها مفضلة مأثورة. ابن قتيبة- الشعر والشعراء أ/ 255 الأصبهاني، أبو الفرج الأغاني - 129/128/11 .
6 النّطف: القرط، وأصله الصفاء، ومنه قيل للماء نطفة. أغن: يخرج الصوت من الخيشوم، منطق عليه نطاق
دراهم الإسجاد: دراهم الأكاسرة. التبريزي - شرح المفضليات 8/2
7الضبي، المفضل - المفضليات 218, التومتان: اللؤلؤتان. وعنى بها ساقيا من المجوس. قنات: احمرت. الفرصاد: شجر التوت، التبريزي - شرح المفضليات 800/2
8 ناصف، مصطفى - دراسة الأدب العربي 141.
9الضبي، المفضل - المفضليات 220 لا مهاه: لا بقاء . التبريزي - شرح المفضليات 802/2.
10 عمرو بن قميئة بن سعد بن مالك من قبيلة بكر بن وائل، ويكنى أبا كعب وكان في عصر مهلهل بن ربيعة، من قدماء الشعراء في الجاهلية، كان مع حجر أبي أمري القيس، عمر حتى جاوز التسعين، ويقال إنه أول من قال الشعر من نزار، وهو أقدم من امرؤ القيس، ولقيه امرؤ القيس في آخر عمره، فأخرجه معه إلى قيصر، فمات معه في الطريق، وسمته العرب عمر الضائع لموته في غربة وفي غير أرب ولا مطلب. ابن قتيبة - الشعر والشعراء 376/1 الأصبهاني، أبو الفرج - الأغاني 158/16. والمرزباني - معجم الشعراء9.
11 كهام: ثقيل مسنّ لا غناء عنده. ابن منظور – لسان العرب. مادة "كهم".
12 ابن قتيبة - الشعر والشعراء 377/1. الستجستاني، أبو حاتم- المعمرون والوصايا 78 مع فروق يسيرة في الرواية . اللجام: ما سال على خدّ الفرس. ابن منظور - لسان العرب. مادّة "عذر".
13 الخلي: الخالي من الهموم، الوساد: الوسادة، ما احس رقادي: يريد سهرت من غير علة ابن منظور - لسان العرب. مادة "خلي"، "وسد". والتبريزي - شرح المفضليات 791/2.
14الضبي، المفضل - المفضليات 215-216 البحتري، أبو عبادة الحماسة 83 مع فروق يسيرة في الرواية عن المفضليات.
15 رحيم، مقداد - رثاء النفس في الشعر الأندلسي 69.
16 ابن عبد ربّه - العقد الفريد 356/2 والخطام: مقدَّم الأنف. ابن منظور - لسان العرب. مادّة "خطم".
17 ابن الجوزي، عبد الرحمن - في ذكر بكاء الناس على الشباب وجزعهم من الشيب 93.
18 علوان، ملاذ ناطق - المفارقة في الشعر الجاهلي 27.
19 فيدوح، عبد القادر - الاتجاه النفسي في نقد الشعر العربي 254
20 هو امرؤ القيس بن حجر بن الحرث بن عمرو بن حجر أكل المرار الكندي من اليمن، ويكنّى أبا الحرث وقيل أبا وهب، وكان يقال له الملك الضليل، وقيل له أيضا ذو القروح. ابن قتيبة - الشعر والشعراء 105/1.الأصبهاني، أبو الفرج - الأغاني 60/8-61.

21الديوان 357 تحقيق: محمّد أبو الفضل إبراهيم.
22الديوان، تحقيق: هيثم جمعة هلال 53.
23السريحي، صلوح - الصورة في شعر الرثاء الجاهلي 26
24 محمد، جليل حسن - قراءات نصية في الشعر الجاهلي 187
25الديوان، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم 99
26أفنون لقب غلب عليه ببيت من الشعر قاله، واسمه صريم بن معشر، من بني تغلب، قال له كاهن في الجاهليّة: إنك تموت بثنية يقال لها إلاهة، وحدث أنه خرج مع ركب فضلوا الطريق في ليلهم، وأصبحوا بمكان فسألوا عنه، فقالوا: هذه إلاهة، فنزلوا، ولم ينزل أفنون، وخلى ناقته ترعى، فعلقت مشفرها أفعى، فأمالت الناقة رأسها نحو ساقه، فاحتكت بها، فنهشته الأفعى، فرمى بنفسه وقال لرفيق له يقال له معاوية مقطوعته، ومات من ساعته، فقبره هناك. ابن قتيبة الشعر والشعراء 419/1. التبريزي - شرح اختيارات المفضل 1154/3-1155.
27الضبي, المفضل - المفضليات 261.
28 سيفصل القول في عقيدة الجاهليين في مبحث "الكشف عن عقائد الجاهليين في مسألة الحياة والموت".
29 علوان، ملاذ ناطق - المفارقة في الشعر الجاهلي 23.
30 ينظر: الملل والنحل 235/2-245 الصائغ، عبد الإله - الزمن عند الشعراء العرب قبل الإسلام 17 - 18
الحوفي، أحمد - الحياة العربية من الشعر الجاهلي 370 وما بعدها. وينظر: خفاجي، محمد - الحياة الأدبية في العصر الجاهلي 55-54. وينظر: الزيات، أحمد حسن تاريخ الأدب العربي10
31 ينظر: الزيات، أحمد حسن - تاريخ الأدب العربي 10
32 ينظر: ابن حزم، أبو محمد علي بن أحمد- جمهرة أنساب العرب 4.
33الحوازي: مفردها حازي: الكاهن. ابن منظور - لسان العرب. مادة "حزا".
34الضبي، المفضل - المفضليات 261.
35 الزخرف 87.
36 الزمر 38.
37 هو عدي بن زيد بن حماد، من زيد مناة من تميم، وكان يسكن بالحيرة، ويدخل الأرياف، فثقل لسانه. وقصيدته: ليس شيء على المنون بباق ...من غُرر قصائده وروائعها. ابن قتيبة - الشعر والشعراء 225/1
38 الدلاص: اللين، البراق، الأملس، ابن منظور - لسان العرب. مادة "دلص".
39 البيضة: الخوذة. ابن منظور - لسان العرب، مادة "أبيض"
40الديوان 96
41 الديوان 35. اللغاب: الريش الرديء، يكسى به السهم. ابن منظور - لسان العرب. مادة "ريش".
42 ينظر: ابن الشجري - مختارات ابن الشجري 31/2-32 والبغدادي، عبد القادر - خزانة الأدب ولب لباب لسان العرب 441/4-442
43 ينظر: أبو عبيدة، معمر بن المثنى - النقائض 836/1. أيام العرب قبل الإسلام 52/2-54.
44 أبو عبيدة، معمر بن المثنى - أيام العرب قبل الإسلام.
45 عطيّة، محمّد هاشم - الأدب العربيّ وتاريخه في العصر الجاهلي 112.
46 أمين، أحمد - فيض الخاطر 8 .

48 أمرة: أمر. الزفيف: السـرعة العطن: مبرك الإبل. ابن منظور - لسـان العرب. مادة "أمر". "زف" "عطن".
49 الغسـلة: ما يغسل به الميت مع الماء مثل الطين والأشـنان. ابن منظور - لسـان العرب. مادة "غسل".
50درْسة: زوال . ابن منظور - لسان العرب. مادة "درس"
51 الخمش: اللطم على الوجه. ابن منظور - لسان العرب. مادة "خمش".
52 ورن مرنات: ارتفعت أصوات النساء بالبكاء. ثار به النفر: أي حمله القوم لدفنه.
53 الديوان 70-71 الجرجاني، عبد القاهر - الطرائف الأدبية 15.
54 تاريخ الأمم والملوك 288/2.
55 الملل والنحل 248/2
56 علي، جواد المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام 152/5.
57 ينظر الشهرستاني الملل والنحل 249/2.
58 ينظر: علي، جواد - المفصـل في تاريخ العرب قبل الإسـلام 160/5. وينظر: جمعة، حسـين - الرثاء في الشعر الجاهلي وصدر الإسلام 94.
59الضبي، المفضل - المفضليات 300
60 ابن عبد ربه - العقد الفريد 3/ 202
61الضبي، المفضل - المفضليات 300. أطباقي؛ مفاصلي. ابن منظور - لسان العرب. مادة "طبق".
62 علي، جواد - المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام 157/5.
63 الجاحظ - الحيوان 121/1. زوراء: حفرة القبر. ينظر ابن منظور - لسان العرب، مادة: "زور".
64 ينظر: علي، جواد - المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام 159/5.
65 اختياله: إدلاله وتجبره لثقته بنفسه. ابن منظور - لسان العرب. مادة "خيل".
66 القروم: الفحول، الأبطال. ابن منظور - لسان العرب. مادة "قرم".
67 تسامت: تفاخرت وتنافست. ابن منظور - لسان العرب. مادة "سمو".
68 أبو تمام، حبيب بن أوس - ديوان الحماسة 416/1 والقسامة: الحسن. ابن منظور - لسان العرب. مادة "قسم".
69 ينظر الألوسي، السيد محمود شكري - بلوغ الأرب في معرفة أحوال العرب 14/3.
70المرموس: كل ما هيل عليه التراب. أي المكتوم، ابن منظور - لسان العرب. مادة رمس. 250/2
71ابن منظور - لسـان العرب 101/6. وأبو عبيدة، معمر بن المثنى - أيام العرب قبل الإسـلام. تميس: تمشي في تهاد وتبختر. لسان العرب. مادة "ميس".
72المتلمّس لقب غلب عليه، واسمه جرير بن عبد المسيح بن عبد ال له من ربيعة بن نزار، شاعر من شعراء الجاهلية المقلين، نشأ في أخواله بني يشكر حتى كادوا يغلبون على نسبه، وهو خال طرفة بن العبد البكري. الأصبهاني، أبو الفرج - الأغاني 120/21-122.
73 الديوان 256.
74 ينظر: الجبوري، يحيى - الشعر الجاهلي خصائصه وفنونه 329.